أســـاطـير أوروبـا عـن الشـــرق

لَـفِّـقْ تَـسُـدْ

دمشق ــ أوتوستراد المزة
هاتف ٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

أســـاطـير أوروبـا عـن الشـــرق

لَـفِّـقْ تَـسُـدْ

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الثالثة
١٩٩٣

رنـا قبانـي

أســـاطـير أوروبـا عـن الشـــرق

لَـفِّـقْ تَـسُـدْ

ترجمة : د . صباح قباني

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

«من الطبيعي أن يمعنوا في قياسنا بالمعايير ذاتها التي يقيسون بها أنفسهم... ولكن عندما نُصوَّر وفق نماذج لا تمتُّ إلينا بصلة فإن ذلك لن يخدم إلا غاية واحدة: هي أن نغدو مجهولين أكثر، وأقلَّ حرية، وأشدَّ عزلة».

غابرييل غارسيا ماركيز *

Gabriel Garcia Marquez

(*) من خطابه في استوكهولم حين تسلّم جائزة (نوبل) للآداب لعام (١٩٨٢).

العنـوان الانكليـــزي للكتـاب

Europe's Myths Of Orient
Devise And Rule

صدر عام ١٩٨٦ عن دار (ماكميلان) البريطانية وعن دار
(انديانا يونفرسيتي برس) الأميركية .

مقدمة المؤلفة للطبعة العربية

هذه الدراسة كُتبتْ في الأصل للقارىء الغربي لتكون إسهاماً في تقويض الصورة التي أرسختها في أعماقه منذ القرون الوسطى كتابات الرحّالة والمغامرين الأوروبيين عن الشرق والعرب والإسلام. فهؤلاء الرحّالة، وبخاصة مَنْ دعموا رؤى عصر الامبريالية، اكتسبوا في بلادهم أبعاداً أسطورية جعلت أي محاولة في الغرب لتكذيب رواياتهم عن الشرق وأهل الشرق إثماً كبيراً وخيانة وطنية.

وقد حرصتُ في هذه الدراسة على أن أكشف للقارىء الغربي كيف ازدرى هؤلاء الكتّاب رجال الشرق ونساءه وحقّروهم مثلما ازدروا المستضعفين في المجتمع الفيكتوري وحقّروهم. فالنساء مثلاً كنَّ في «المؤسسة الفيكتورية» مجموعة هامشية تماماً مثلما كانت الأجناس الأخرى مجموعة هامشية في نطاق «المؤسسة الاستعمارية». وهكذا لم يَرَ الكتّاب والمصورون الاستشراقيون في المرأة الشرقية سوى أنها بعضٌ من متاع امبراطوريتهم، فهي جارية أو حظية أو راقصة أو مومس أو قاتلة أو غاوية، ولا شيء غير ذلك.

وفي محاولتي لنزع هالة القداسة التي أحاطت بهؤلاء الكتّاب، ولا سيما (بورتون) و (لورنس)، كان لابد أن أسرد للقارىء الغربي البذاءات التي انطوت عليها كتاباتهم ورسائلهم والتي لم تكن تشفّ عن عقول ثقاتٍ من الباحثين والدارسين، حسبما صوّروا أنفسهم، بل كانت

تنمّ منها عقد نفسية، وجنسية، ودينية اعتلجت في سرائرهم ووجدوا متنفساً لها في «شرقهم» الذي اخترعوه. وقد رأيت أن تتجاوز الترجمة العربية عن تلك المقاطع الشائنة التي جرت بها أقلام من تصوّر القارىء الغربي ولأمد طويل أنهم أنصاف آلهة.

وإنني أودّ أن أشكر لـ (دار طلاس) قيامها بإصدار هذه الترجمة لكتابي، الذي نُشر بالانكليزية في بريطانيا وأميركا في العام الماضي، بعد أن رأتْ ثمة حاجة لاطلاع القارىء العربي على التلفيق الخبيث الذي صَوّر به الغرب بلادنا وأهلها في القرون الماضية لأسباب سياسية، وعلى إمعان هذا الغرب في تشويه صورتنا حتى يومنا الحاضر للأسباب ذاتها.

رنا قباني

لندن ــ كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٧

مقدمة

إنَّ مفهوم الرحلة، باعتبارها وسيلة لجمع المعلومات وتسجيلها، أمر شائع في المجتمعات التي تمارس درجة عالية من القوة السياسية. فالرحّال يبدأ رحلته وتكون وراءه أمة ذات سلطان تدعمه بنفوذها العسكري والاقتصادي والفكري والروحي، ولذا نجده عندما يكتب يضع في حسابه جمهوراً خاصاً من القراء ـــ ألا وهم أبناء وطنه، وأقران مهنته، وملكه أو راعي رحلته. ولا شك أن وجود هؤلاء نصب عينيه يؤثّر على رؤيته ويجعله انتقائياً فيختار من المعلومات أنواعاً معينة أو يركّز على سمات دون غيرها لمجرد أن لها رنينها في ثقافة أمته. كما أن مركزه الاجتماعي يساهم أيضاً في تلوين رؤيته تلك إذ غالباً ما يكون منحدراً من طبقة مرفهة تتيح له أن يقوم برحلات عالية المستوى والتكاليف فيغدو بطبيعة الحال ممثلاً لمصالح وأنماط من التفكير أُنشيء عليها.

والرحّال الذي ينطلق من بلده القوي بحثاً عن الغرائب في بلاد أقل قوة نجد نموذجه في العديد من الحضارات.[1] فالعالم الإسلامي فيما بين القرنين السابع والرابع عشر والذي كان يتألف من قوى عسكرية وسياسية يمتد سلطانها من إسبانيا حتى الصين، أرسل الرحالة، مبعوثين ومستكشفين، ليأتوه بالمعرفة ويثروا مستودع المعلومات السياسية لديه. وبازدياد قوة

العرب ازدادت كتب الرحلات في أدبهم[2] وأقبل الناس على هذه الكتب لما تضمّنته من معلومات عن أقطار الإمبراطورية العربية أو عن تلك التي وراء حدودها وكانت ذات أهمية اقتصادية . والواقع أن الرحّالين والجغرافيين حينذاك أولوا التاريخ الاقتصادي اهتماماً كبيراً باعتبار أن العرب انطلقوا في الأسفار أساساً لأغراض التجارة .[3] إلا أن ما كُتب عن تلك الأقطار انطوى على قدر من قصص الخيالِ والمبالغات بهدف إمتاع القراء، فقد اعتمد أصحاب الرحلات على روايات رحالة آخرين لرسم صورة ذات جاذبية شعبية عن البلاد التي سافروا إليها وراح كل منهم يقتبس مقتطفات من رواية الآخر (مثلما فعل أبو زيد السيرافي وعلي بن الحسين المسعودي)[4] كما راحوا ينفخون حياة جديدة في قصص قديمة كان من المفترض لولا ذلك أن تكون قد بليت وطواها النسيان . وهكذا عندما كتب (الادريسي) عن جنوب شرقي آسيا في القرن الثاني عشر أدخل في كتاباته نصوصاً ترجع إلى ما قبل ثلاثمائة سنة .[5] ورغم أن معظم كتّاب الرحلات كانوا أهل علمٍ يتوخون الدقة في ما يكتبون ، ليتجنبوا التحريف الذي كان يطغى على روايات البحارة والتجار ،[6] فإنهم لم يتمالكوا أنفسهم عن تأكيد بعض الأساطير التي استساغتها أسماع مواطنيهم . فبلاد (الواقواق) مثلاً كانت واحدة من تلك العوالم الأسطورية التي وصفها الجغرافيون العرب ، وكانوا يضعونها كل مرة في مكان مختلف (غالباً حيث اليابان الآن) . فابن خرداذبة ذكر في القرن التاسع أنه رآها أرضاً غنية عجيبة وكتب يقول عنها :

« ... في مشارق الصين بلاد الواقواق ، وهي كثيرة الذهب حتى أن أهلها يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق

قرودهم من ذهب، ويأتون بالقمص المنسوجة بالذهب للبيع».[7]

أما المقدسي فجعل الواقواق في الهند، وقال إن اسمها جاء من شجر فيها له أثمار ذات أفواه تنادي «واق ! واق».[8] وهكذا اعتبر الرحالة الذين وصفوها على تلك الصورة بالاستناد إلى ما سمعوه أو ما تخيلوه، اعتبروا هذه الواقواق أرضاً موغلة في البعد وتقع إلى الشرق دائماً.[9] ومن هنا أصبحوا كلما اكتشفوا أرضاً جديدة تباعدت الواقواق ببطء عنهم، وظلت دائماً «تلك الجزيرة التي لم تكتشف بعد والتي تقوم عند الأفق الشرقي».

وكما هو واضح فإن ذلك كله لم يخرج عن نطاق المبالغات الجغرافية والطرائف المسلية حسنة النية. أما ايقاع الأذى فبدأ يشيع عندما راحت جماعات متسلطة وقادرة تلفّق صورة عن «الآخرين» من البشر وتصنّفهم في نماذج نهائية ترسمها هي ولا تمت إلى النماذج الطبيعية بشيء. ويقدم المؤلف (بليني Pliny) في كتابه (التاريخ الطبيعي) نموذجاً مبكّراً للنصوص ذات النزعة العرقية، فهو يزخر بالحديث عن عادات **«أكلة لحوم البشر»، وجماعة الآستومي Astomi «التي تعتمد** حياتها على شم التفاح»، وجماعات السيوبود Sciopods وأهل الأمازون والبراهمة. ولذلك كان أساس شعبية كتاب (بليني) في أوروبا / العصور الوسطى أنه رتّب وأكّد كتابةً المعتقدات السائدة حينئذ عن أجناس غامضة «من الناس». وقد تكرر الأسلوب نفسه في عصر النهضة حين وصفت روايات الرحلات أسفاراً تتسم بالغرابة المتعمّدة.

واستطاع الرحّال، سواء كان تاجراً مثل (ماركو بولو Marco Polo) أو بحاراً مثل (بيكافيتا Pigafitta)، أن يفرض شخصيته بقوة على الخيال الشعبي، فقد عرّف الناس بآفاق جديدة، وكان عنده الجواب على تساؤلات تدور حول الأجناس، كما كان أيضاً «رسول حضارة متفوقة»، بل أصبح مؤرخاً للفتوحات ومبشّراً. وحين وصف (بيكافيتا) رحلة (ماجيلان) التي قام بها في أوائل القرن السادس عشر كتب يقول بنبرة ما لبثت أن تكررت فيما بعد خلال عهد الاستعمار في القرن التاسع عشر:

«... في ذلك اليوم قمنا بتعميد ٨٠٠ شخص من الرجال والنساء والأطفال. كانت الملكة شابة وجميلة تغطيها الملابس البيضاء والسوداء، وكانت شفتاها وأظافرها قانية الحمرة وكان على رأسها قبعة كبيرة من سعف النخيل».[10]

وهكذا ينبغي أن يُجعل أهل البلاد المفتوحة يعتنقون ديناً جديداً وأن تُحكم السيطرة عليهم. «فمتوحشو العالم الجديد» يمكن احتمالهم فقط حين يتم اخضاعهم. ومن أجل تبرير هذه العبودية المفروضة على شعبٍ ما ركّزت الروايات الأوروبية على «وحشية وفساد السكان الأصليين»، فاستغل (كولومبوس Colombus) مثلاً حكاية «أكلة لحوم البشر» في القارة التي فتحها من أجل أن يحثّ اسبانيا على ممارسة تجارة الرقيق. وكذلك كان أمر (كورتس Cortes) حين صوّر بدقة الطقوس القربانية التي كان يزاولها أهل المكسيك كي يُغفَرَ له ما ارتكبه من عنف ضدهم. لهذا كله يتحتّم أن تُقرأ تلك القصص بمنظور آخر وفي ضوء أنه بين عامي ١٤٩٤

و ١٥٠٤ مات ثلاثة ملايين أميركي جنوبي نتيجة أعمال « التهدئة » التي مارسها الاسبان .[11]

إن اختلاق النماذج العرقية والتأكيد على حكاية الهمجية كان شيئاً حيوياً بالنسبة لمفهوم العالم الاستعماري . ففي أميركا مثلاً كانت ثمة خطة منهجية لتصوير الهندي خاطفاً للنساء ، وقاتلاً للأطفال ، وجامعاً للرؤوس البشرية ، وذلك من أجل تغطية وحشية الرجل الأبيض ضد هذا الهندي .[12] ومن هنا كتب (تيودور روزفلت) في عام ١٨٩٦ :

« كان المستعمرون والرّواد الأوائل يشعرون في أعماقهم أن الحق هو إلى جانبهم ، وأن هذه القارّة العظيمة لا يمكن أن تترك لعبث الهنود المتوحشين » .[13]

وبعد أن اطمأن الرجل الأبيض إلى أنه امتلك ناصية الأرض المفتوحة أصبح بمقدوره أن يتخلى ببطء عن فكرة الشر الثابتة التي ألصقها بالسكان الأصليين . ولذلك رأينا كيف امتزج « الشعور بالذنب » الأميركي و« الرومانسية الأوروبية » معاً ليولّدا صورة ما أسمياه « المتوحش النبيل » . بيد أنّ التناقض ظل قائماً بين تلك الصورة المتخيلة للهندي ، وبين ما كان يواجهه هذا الهندي على أرض الواقع من عمليات إبادة . فالمتوحش هو نبيل طالما كان ينتمي إلى جنس بشري هو في طريق الانقراض . ولذلك اعتبر آخر من بقي من قبيلة (الموهيكان Mohicans) نبيلاً ومهيباً لأنه كان بالفعل آخر من بقي من تلك السلالة . وبالرغم من بعض الشهامة في كتابات (فينيمور كوبر Fennimore Cooper) فإنها تبقى شهامة محدودة وتظل تتماشى مع الرواية العنصرية القديمة ، فالهنود

عنده، وإن كانوا في بعض الأحيان نبلاء، إلا أنهم أساساً «رجال متعطشون للدماء»، بل قد يوصلهم في بعض ما يروي إلى مرتبة «آكلي لحوم البشر»:

«... وعندما اهتاج الهنود وأصابهم مسّ من الجنون أمام منظر سيلان الدماء، جثا الكثيرون منهم على الأرض وراحوا يشربون الدم القاني وهم في ذروة النشوة الشيطانية».[14]

وبمقدور «المتوحش» أن ينال في بعض الأحيان عطف الرجل الأبيض إذا ما ساعده في عملية السيطرة على البيئة، كما فعل (فرايدي Friday) حين ساعد (روبنسون كروزو Robinson Crusoe)، كما أن الفتاة الهندية (بوكاهونتاس Pocahontas)، على سبيل المثال، تجسّد دور «المرأة الطيبة»: فهي تتخلى عن شعبها وتتنازل عن منزلتها الملكية من أجل إنقاذ رجل أبيض. إنها «مطيعة إلى أقصى الحدود» ومستعدة لتمحو شخصيتها تماماً وتتحول من أميرة هندية إلى «زوجة مسيحية وفية». ويكون من شأن «اندماجها» في المجتمع الأبيض أن يكذّب من جهة الشكوك بعدم إنسانية هذا المجتمع كما أنه من جهة أخرى يسبغ على ضميره الراحة والهدوء.

إن إلصاق صفة الشر بفئة تكون قليلة أو مستضعفة ضمن مجتمع ما كان دائماً طريقة مناسبة لخلق كبش فداء.[15] فأوروبا/القرون الوسطى ربطت بين النساء والشيطان ورأت فيهن عدوات للكنيسة والمدنيّة[16] مما برّر حملة مطاردة الساحرات ومحاكمة النساء بتهم «الجرائم الجنسية، وأكل لحوم البشر، ومعاشرة الأرواح الشريرة».[17]

ومثلُ ذلك أيضاً إلصاق صفة الشر هذه بثقافات

بعيدة والذي كان أحد ظواهر التعصب الأعمى لدى أوروبا / القرون الوسطى ؛ فهي عندما رأت في الدولة الإسلامية « الخصم اللدود » انبرت تمارس أسلوب الهجوم العنيف القائم على التعصب والعداء من أجل الحد من أي نفوذ قد تكتسبه هذه القوة المنافسة . ومن هنا أصبح يُنظر إلى الإسلام على أنه « الغاء للمسيحية » ، وأن رسوله محمداً عليه السلام هو « عدو للمسيح » ، وكان الغرب يرى في العالم الإسلامي عالماً مضاداً لأوروبا[18] وبذلك أصبح موضع الشك والريبة . وهكذا جابهت أوروبا المسيحية الشرق الإسلامي مجابهة ثقافية ودينية وسياسية وعسكرية ، ومنذ ذلك الحين تَقرّر مجرى العلاقة بين الشرق والغرب . فأوروبا / ما بعد الحروب الصليبية لم تتخلص مطلقاً من عدائها الذي شحنت به نفسها إبّان تلك الحروب ، ولهذا كان من السهولة بمكان أن تتحول رغبتها القديمة في الوقوف في وجه خصمها الإسلامي إلى تصميم على السيطرة ، هذا التصميم الذي كان الأساس النفسي للامبرياليين منذ نابليون . وانطلاقاً من هذه النفسية ، كان أول ما قام به الجنرال الفرنسي (غورو Gouraud) بعد أن فتح دمشق عام ١٩٢٠ هو أنه توجه فوراً إلى حيث يرقد صلاح الدين الأيوبي ، الذي هزم الأوروبيين خلال الصليبية الثالثة ، وحين وقف أمام ضريحه خاطبه مزهواً : « ها نحن عدنا يا صلاح الدين ! » .[19]

وتتضمن الروايات الأوروبية عن الشرق تركيزاً متعمداً على تلك السمات التي تجعل هذا الشرق مختلفاً عن الغرب وتنفيه إلى عالم (الآخر) وتخفضه إلى مرتبة (الغير) الذي « لا صلاح له » . وكان في هذه الروايات الأوروبية التي تصف ذلك (الآخر) مقولتان ملفتتان للنظر : الأولى هي الإلحاح على

الادعاء بأن الشرق هو «مكان الفسق والملذات»، والثانية هي أن هذا الشرق هو «عالم العنف المتأصل». وكان لهاتين المقولتين أهميتهما في فكر العصور الوسطى وظلتا تترددان بدرجات متفاوتة من القوة حتى وقتنا الحاضر. إلا أن القرن التاسع عشر هو الذي أفرز الشكل المدروس والمنظّم لهذه المقولات، إذ إن القرن المذكور شهد مجابهة جديدة بين الغرب والشرق ــ ألا وهي المجابهة الامبريالية. فإذا ما صُوّرت شعوب الشرق بأنها «خاملة، وفاسقة، وصاحبة عنف، وليس لها قدرة ذاتية على أن تحكم نفسها»، عندئذ يجد الامبريالي لنفسه المبرر ليتدخل ويحكم. فالتسلط السياسي والاستغلال الاقتصادي كانا يحتاجان إلى لغة منمقة لتظهرهما وكأنهما ليسا سوى رسالتيْ حضارة وتمدين. وعلى هذا لم تلجأ ايديولوجية الامبريالية إلى انتهاج الشوفينية العمياء بل راحت تستخدم العقل بطريقة ماكرة وجنّدت العلم والتاريخ لخدمة أغراضها. فصورة الأوروبي المستعمر يجب أن تبقى صورة مشرّفة: إنه «لم يأتِ كمستغل، وإنما جاء كصاحب رسالة تنويرية، كما أنه لا يسعى إلى مجرد الكسب، بل هو يؤدي واجبه نحو خالقه ومليكه عندما يمدّ يد المساعدة إلى مَن لم يحالفهم الحظ ليرتقوا إلى مستواه الرفيع». إنه شعار «عبء الرجل الأبيض» الذي أتاح له أن يُخضع قارات بأكملها.

لقد أنتجت بريطانيا القرن التاسع عشر حجماً هائلاً من أدب الرحلات وذلك في محاولتها المسعورة لمعرفة العالم الذي كانت في صدد غزوه. فالرحالة سافروا لخدمة وطنهم، وكانوا عينه التي ترى، وصوته الذي يروي. ولهذا كانوا غالباً ما يتمتعون بالدعم المالي الرسمي باعتبار أن روايات رحلاتهم هي التي صوّرت العالم كما أرادته الامبريالية.

ومع أن القرن الثامن عشر أنتج أيضاً أدب رحلات يتّسم ببعض الرؤية إلا أنه ظل لوناً تعليمياً من نوع سرد الحكايا . وقد أملى ذوق الكلاسيكية الجديدة Neoclassical إلى حد كبير على رحّال هذا القرن نوعية ما كتب ،[20] إذ إنه التزم بالتقليد العام للقصص الوصفية أكثر من التزامه برواية السيرة الذاتية ، وهكذا عمد إلى وصف المناظر وتفادى وصف أحاسيسه الذاتية بدقة خشية أن يقال عنه إنه رحّال « عقيم » وهي التهمة التي ألصقها الكاتب ستيرن Sterne بالرحّال يوريك Yorick . لذلك لم تتمكن قصص القرن الثامن عشر من أن تنافس في طموحاتها تلك التي أنتجها القرن التاسع عشر حيث أصبحت الرؤية امبريالية تماماً .

فرحّال القرن التاسع عشر أصبح يهتم بالمنظر الطبيعي فقط عندما يكون بمثابة خلفية تخدم مسيرة روايته . فهو « بطل الرحلة » ، وليس مجرد راويها ، وكان ينتهز كل فرصة ليتحدث عن الذات . فالأنا الممقوتة في النبرة الكلاسيكية أمكن تكييفها لتتلاءم مع التمجيد الفيكتوري للفرد . لقد أضحى الرحّال هو الصليبي ، والبطل ، والجندي المسيحي ؛ وسرعان ما اتسعت شهرته وراحت تأخذ أبعاداً أسطورية مثلما حدث لجوردون Gordon ولورنس Lawrence . وكانت أية محاولة لتكذيبه أو زعزعة الثقة بما يقول تعتبر إثماً كبيراً ، فمثلاً حين انتقد (ويلفرد سكاون بلانت Wilfried Scawen Blunt) بطريقة متميزة حماقات (جوردون) قوبل باستياء أبناء وطنه لأنهم رأوا في هذا النقد عملاً « غادراً وجباناً » . وعلى كل حال ، لم تكن الذات الأسطورية للرحّال سوى محصلة كل ما حمله معه من ثقافة ، ونزعات ، ومعتقدات ، والكثير من التحامل ، والخيال العنصري ، وكانت كلها تتماشى مع قرن الرحالة الامبرياليين .

كان (ريتشارد بورتون Richard Burton) واحداً من هؤلاء وأغزرهم انتاجاً. كان رجل الامبراطورية حيثما ذهب، وكتاباته هي التي عملت ما بوسعها على تأكيد أسطورة «الشرق الجنسي». فهذا الشرق كان في نظر (بورتون) «مجالاً محرّماً» حيث النساء «جوارٍ يمنحن ملذات جنسية» محظورة في وطنه الفيكتوري. وقد ترافق حديث الجنس هذا مع حديث العنصرية، فالنساء في نطاق مؤسسة المجتمع الفيكتوري كنّ مجموعة هامشية تماماً مثلما كانت الأجناس الأخرى مجموعة هامشية في نطاق المؤسسة الاستعمارية. وهكذا كانت النساء الشرقيات محل ازدراء مرتين: مرة لأنهن نساء ومرة لأنهن شرقيات، كما كنّ نموذجاً للجنس في عصر قمعي، فصار تصويرهن واشتهاؤهن تعبيراً مباحاً لموضوع محرّم.

ومع أن هناك أمثلة بارزة لنساء بريطانيات من العهد الفيكتوري ارتحلن وكتبن عن البلاد التي مررن بها أو استقررن فيها،[21] فإن جوهر الكتابة الفيكتورية عن الرحلات يظل ما كتبه الرجل ــ ذو الهيمنة الأبوية لأنه كان يمد أصحاب السلطة بالمعلومات فيكون بالتالي قد قدّم خدمة لهم. ومع أن بعضاً من هؤلاء النساء كن يرتبطن بأولي الأمر برباط الزوجية أو الولادة فإنهن بقين رحّالات رمزيات لأنهن كنّ عرضة لضغوط متنوعة جعلتهن ينطقن بمفاهيم الرجل. وهكذا رأينا كيف أصبحت مؤلفات (ايزابيل بورتون Isabel Burton) نسخاً ملطفة عن مؤلفات زوجها: فقد عادت وكتبت لـ «ملاك المنزل» ما سبق أن كتبه هو لـ «نادي الرجال».

كانت روايات الرحلات الفيكتورية مرتبطة بعلم حديث الولادة ــ هو الانتروبولوجيا. ومع أن هذا العلم أصبح

فيما بعد يساوي بين الثقافات والأجناس إلا أن بداياته كانت غالباً ما تدغدغ زهو الأوروبي بنفسه وتُدخل في روعه بأنه هو « ذروة التفوق بين أجناس البشر الأخرى » ، وأن تلك الأجناس هي « أدنى مرتبة » منه . وكان يقيس مقدار تدنّيها بمقدار اسوداد بشرتها ، « وطالما أنها تندرج في أدنى مراتب ذلك المقياس » الذي توهّمه ، فإنها « تشارك الحيوانات في الكثير من صفاتها التي كانت حرارة الشبق الجنسي واحدة منها » . ومن المفيد أن نلاحظ كيف تردد تشبيه تلك الأجناس بالحيوانات في العديد من الكتابات . فوصفُ (ياغو) لعطيل في المسرحية الشكسبيرية بأنه « حصان متوحش » ما كان إلا بداية مهذبة لسلسلة من النعوت المحقّرة التي ما لبث أن ابتكرها الفيكتوريون .

وكان ثمة تداخل بين علم الانتروبولوجيا والرواية وقصص الرحلات . فمن الملفت للنظر أن الرؤية العنصرية للأجناس الأخرى كانت واحدة في تلك الأنواع الثلاثة والمختلفة من الكتابة . إن رواية « كنوز الملك سليمان » مثلاً التي كتبها (رايدر هاغارد Rider Haggard) عام ١٨٨٥ وبيع منها (٣٠) ألف نسخة في السنة الأولى من نشرها والتي كان يقرؤها طلاب المدارس الخاصة (الذين أصبحوا فيما بعد مدراء الامبراطورية)،[22] إن هذه الرواية خلّدت كل الأفكار العرقية عن الإنسان البدائي وأبرزت « تفوّق العنصر الآنكلو ــ ساكسوني » . كما أن رؤية (بادن ــ باول Baden-Powel) للحركة الكشفية التي أسسها استعارت الكثير من الوصف الانتروبولوجي لطقوس الشعوب البدائية وذلك من أجل ابتكار تجارب مشابهة للشباب الأوروبي الذي